الاستشراق بين الهدف المعرفي والتوظيف الأيديولوجي

د.أبو الهيجاء محمد رافع حمدان
جامعة الأنبار / كلية الآداب

المستخلص

يعد البحث في موضوع الاستشراق على قدر كبير من الأهمية، وهذه الأهمية مستمدة من تداخل أطرافه التي يمثلها الغرب من جهة، والشرق من جهة أخرى. فالغرب كان وما يزال يمد أعينه على العديد من بقاع الشرق، بغية تكوين تصورٍ يساعد في تسهيل مهمة الهيمنة عليه وذلك بعَدِّهِ "آخرَ" مُقابلٍ له، وهذا النمط قد تجلى ضمن منطقيات الصراع من أجل الاعتراف كما عبر عنه "هيجل"، وإن عجز في بحثه عن إيجاد ذلك "الآخر" فسوف يعمل على صناعته وإنتاجه، وهو ما نجده على ساحة الصراع "الجيوسياسي" في الفترة الراهنة.

لقد حاول البحث الدوران حول مفهوم الاستشراق بغية بيان المعالم الرئيسية التي تمثل الشكل الذي يبدو عليه للعيان، وذلك بغية التوطئة لعمل الأذهان الذي من شأنه الكشف عن المعاني الهاجعة خلف محاولات المستشرقين والمتمرسة وراء دعاواهم، والتي كانت متباينة إذا ما تم قياسها وفق منطق الإنصاف والحيادية مقارنةً مع منطق الميول تحت مختلف الدوافع والبواعث، ومتباينة كذلك إذا ما تم قياسها وفقاً لمنطق البحث العلمي الهادف والمجرد مقارنةً بمنطق التوظيف الأيديولوجي الذي تحركه الفلسفة البراغماتية.

وأما عن مفهوم الاستشراق وصلته بالعلم، فإن البحث يرى أنه بعيد عن تخوم العلم، ومن الصعوبة له أن يتاخم حدوده، وذلك لسبب بسيط متمثل بكون العلم ينشد على الدوام معرفة الحقيقة المجردة، وإن كانت لا تلائم العواطف والأهواء، بالإضافة إلى وجوب استخدام وسائل المعرفة الممكنة لرصد الظاهرة التي هي قيد الدرس، وذلك لملاحقة التطورات الجارية عليها، بغية الوصول إلى قانون علمي يفسر هذه الظاهرة أو تلك، وهذا القانون بدوره يتوجب فيه أن يكون قابلا للتعميم وللتكميم، ومن ثم فإنه لا يمكن عد الاستشراق علما من العلوم، له خصائصه الذاتية كأي علم آخر، لأنه من الصعب إثبات ذلك نظراً لطبيعة هذه الدراسة الشمولية التي تناولت كل شيء عن الشرق، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستشراق ينتمي إلى الحقل الأيديولوجي في كثير من زواياه، إذ أن له أيديولوجية خاصة يراد من وراءها ترويج تصورات معينة عن الإسلامِ بصرف النظر عما إذا كانت تلك التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات.

Abstract

Research in Orientalism is very important due to the intersection of its western and eastern lines. The west still has eye on many countries in the east in order to dominate it. This act of seer tiny in the geographical, social, economic, and political nature of east, one can dare say, is proportionate with the advance in the western self understanding of its geographical, social, economic, and political nature. Interest in east was not that important to the western mentality at times of intellectual darkness. The inception of awareness is a search for the self in an other which acts as a self – mirror. This is clear in the logic of conflict or struggle for recognition as expressed by "Hegel". The inability to find such an "other" can lead to a production of such an "other" and this is case on the contemporary arena of the geo – political in this time.

One of the major reasons to search into this phenomenon is that Orientalism efforts are not limited to the 18th and 19th centuries. Thus Orientalism as an attempt to understand the east, for dominance or mere knowledge, would only end with the termination of its causes. Dominance in the western mind is correlated with knowledge. This shows that the western attempt to conquer the Islamic east extends across all time. This makes necessary the study of the works of all concerned scholars and thinkers to understand Oreintalism. This should be dont to encounter the western attempt to keep the keep the Islamic Arabic east inferior to the west intellectually and eras eastern memory by using globalization as its main means.

المقدمة

أهمية البحث

يعد البحث في موضوع الاستشراق على قدر كبير من الأهمية، وهذه الأهمية مستمدة من تداخل أطرافه التي يمثلها الغرب من جهة، والشرق من جهة أخرى. فالغرب كان وما يزال يمد أعينه على العديد من بقاع الشرق، بغية تكوين تصور يساعد في تسهيل مهمة الهيمنة عليه، وفعل إمعان النظر في طبيعة الشرق الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية يمكن للباحث أن يذهب إلى القول بأنه يتناسب طرداً مع مقدار التقدم الحاصل في الفهم الغربي لذاته ولطبيعته الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إذ أن الاهتمام بالشرق لم يكن يشكل أهمية على الساحة الفكرية الغربية في فترات تصحرها وجفافها. فالوعي حين يتبلور فإنه سوف يتبلور على هيئة استفهام يبحث عن إجابة، وتبلور الوعي سوف يؤدي بالتالي إلى البحث عن آخرٍ يتمثل الوعي ذاته عبره كمرآةٍ له، وهذا النمط قد تجلى ضمن منطقيات الصراع من أجل الاعتراف كما عبر عنه "هيجل"، وإن عجز في بحثه عن إيجاد ذلك "الآخر" فسوف يعمل على صناعته وإنتاجه، وهو ما نجده على ساحة الصراع "الجيوسياسي" في الفترة الراهنة.

ومن الأسباب المُوجبة لأهمية البحث في موضوع الاستشراق هو عدم توقف المحاولات الاستشراقية عند حدود القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهو تصور له حظ غير قليل من الذيوع، إذ أن الاستشراق محاولةٌ لفهم الشرق من قبل الغرب سواءٌ كان مدفوعاً بأيديولوجيا الهيمنة، أم كان تواقاً للمعرفة المجردة، وهذه المحاولة لن تنتهي إلا بانتهاء أسبابها، ومن الصعوبة بمكان القول بأن الرغبة بالهيمنة سوف تبرح الفكر الغربي في عين الوقت الذي يصعب معه القول بإمكانية زوال الرغبة في المعرفة، وتشهد على الحضور المستمر لكلتا العقبتين، الحروب التي لم يخل زمان ولا مكان في الشرق من آثارها. وهذه الاستمرارية في التعرض للشرق وخصوصاً الشرق العربي الإسلامي تؤكد ضرورة البحث في طبيعة الاستشراق عِبر المؤلفات التي ألفها المفكرون العرب والغربيون، توطئة للوصول إلى طرائق ناجحة في التعامل مع هذا النوع من النشاط الفكري الغربي، وتقييمه ومواجهة التيارات التي تحاول أن تبقي الشرق العربي الإسلامي عالةً على موائد الغرب الثقافية والعلمية، عِبر جملة الآليات التي تسلح بها الغرب وتمكَّن من امتلاكها وحاول الانفراد بها، بإبقاء الشرق على وضعه السقيم وجعله تابعاً للغرب، وذلك بالعمل على محو الذاكرة الشرقية، ومصادرة مخزونها الهائل من كل ذكريات ماضيها الذهبي، مستغلة كل ما وسعها من جهود، ومستفيدة من العولمة كأحد أبرز أوجه الهيمنة.

مشكلة البحث

لعل من أبرز المشاكل التي يواجهها الباحث في شأن الاستشراق هي مشكلة الفصل بين الخطاب الاستشراقي كخطاب عاكس لحقائق ووقائع الشرق والمساهمة في تحليلها وإعطاء المشورة

والدعم في التغلب على العوائق التي قد تعترض طريقها، بعيداً عن منطق الهيمنة، وهذا من جهة، وبين الخطاب الاستشراقي المسؤول عن تصوير ألوان من التمثيل تتحجب القوة بين ثناياه وتتمترس المصلحة والمؤسسة الراغبة في تحقيق تلك المصلحة خلفه. وهذه المشكلة سوف تولد بالتالي مشكلة أخرى هي بروز الاستشراق كمنهج معرفي إبستمولوجي من المفترض به الالتزام بمبادئ المعرفة، بروزاً متزامناً مع الشرق كواقع لا تربطه صلة أو انعكاس بالمنهج المعرفي.

والمشكلة الأخرى التي تواجه البحث في موضوعة الاستشراق هي مشكلة التداخل بين الأزمان، إذ أن من المفترض أن يكون التنظير للاستشراق قد بدأ مع الشعور بحاجة الغرب إلى متنفس لتصريف منتوجه، من جهة، وحاجته إلى المصادر الأولية للصناعات التي بدأت تتطور بشكل مطرد بعد الثورة الصناعية التي استهلتها إيطاليا وفرنسا أثناء عصر الأنوار وبعده، وهذا من جهة ثانية، وتزامن كل ذلك مع تنامي الرغبة لدى الدول الغربية وخصوصا الممتلكة للأساطيل البحرية في الهيمنة على المناطق الحيوية في العالم، الأمر الذي أدى إلى اندلاع حمى الاستعمار. ولكن الفرض بانتهاء الفترة الاستعمارية التقليدية والتوقف الظاهري التقليدي لعمليات الاستشراق شيء، وما يشهده عالم اليوم من بعث لفكرة الهيمنة والاستعمار واستغلال "المراكز" القوية لمصادر قوتها من أجل الهيمنة على مصادر الطاقة في "الأطراف" الضعيفة، والسيطرة على سلوك دول الشرق وخصوصا العربية والإسلامية، ومواجهة أزمة الشعور بالنقص الحاد في الهوية، شيء آخر مختلف تماماً عما يفترضه واقع القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. فالتداخل في المفاهيم يشكل بحد ذاته مشكلة لكل باحث في قضايا الاستشراق. الأمر الذي سوف يضطر معه الباحث إلى تتبع إشكالية الاستشراق من أصولها الأولى. وتبعاً لذلك فينبغي على الباحث توخياً للإحاطة بهذه الإشكالية أن يستمر في الكشف عن العلاقات الهاجعة خلف الظواهر التي يشهدها عالم اليوم والتي يعد الاستعمار الجديد، والحروب الأيديولوجية التي يشهدها العالم، والنظريات التي توطئ لها، من أبرز معالمها.

التوطئة

ظهر الاستشراق كفعالية من فعاليات التمركز الغربي حول الذات، والذي بدأت بوادره في الظهور منذ مبارحة الغرب للعصور الوسطى وتفجر الثورة الصناعية، والذي تزامن مع أفول الشرق وخفوت أضواءه. وقد شكل الشرق في إطاره موضوعاً لتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث وأقوال مختلفة، بدا فيها الشرقي نمطاً ملتبساً ومفعماً بالأساطير والتصورات المغلوطة، وظهر فيها الشرق مغايراً ومفارقاً لواقعه، مع أن الشرق لم يكن كياناً واحداً، ولكن الأبحاث والدراسات الاستشراقية صورته كذلك بناءاً على أحكام التمركز الغربي. فالفصل بين الغرب والشرق لم يؤخذ باصطلاحه المكاني والجغرافي، بل في تأكيد التباين الثقافي والسياسي والأيدلوجي بينهما في انفصامهما، لذلك فإن الاستشراق ليس ظاهرة خلقتها ظروف تاريخية محددة، كما أنه لم يشكل، عبر تاريخه، إفرازاً لحاجات ومصالح الغرب الحيوية المتصاعدة، بقدر ما كان إفرازاً - قد لا نغالي إذا قلنا - طبيعياً لعقل ميتافيزيقي متمركز على ذاته، همّه الأساس إنتاج الآخر، أي آخر، وفق صور رغبوية ومتخيلة، تعتريها تشوهات الإحالة والفصل والمعايير الميتافيزيقية التي وسمت مجمل تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية الغربية. وهكذا، تُظهِر ميتافيزيقا الاستشراق الذات الغربية في زهوة تفوقها وقوتها وسطوتها، بينما تزيِّف ثقافة الآخر الشرقي، وخصوصاً الإسلامي، وتحتقر ثقافته ولغته وديانته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ، وخارج الفضاء الكوني المشترك الذي يناضل من أجله الجميع، مجردة إياه من القيم الإنسانية المشتركة، وهو عين ما ذهب إليه "دانييل بايبس" وهو مدير "منتدى الشرق الأوسط" إذ ذهب إلى أن الشعب العراقي لم يعرف الحرية والحضارة إلا بعد مجيء القوات الأمريكية(١).

وقد لا ينطبق هذا التوصيف على توجهات وجهود بعض المستشرقين، إنما على مجمل حركية وفعالية الاستشراق التي ارتبطت بالمد الاستعماري، فلا يمكن الحديث عن الغرب بوصفه كياناً واحداً موحداً، إذ هو لم يكن كذلك في يوم من الأيام، وكذلك فإن الشرق لم يكن موحداً في يوم ما، لكن مفهومي الغرب والشرق استخدما ووظفا في سياقات غامضة، وساهم هذا الاستخدام في

إنتاج صور نمطية ملتبسة عن الغرب وعن الشرق. فقد تحول كل من الغرب والشرق إلى مفهوم متمثّل أو تمثيلي، بناء على ميتافيزيقا تنهض على تمركزٍ ذاتي محاط بتمركزاتٍ عديدةٍ داعمةٍ له، فابتعد الوجود المتعين لواقع كل منهما، وغاب بذلك المعطى الواقعي للمفهوم، حيث نسجت مكوناته ومركباته وفق أشكال متخيلة ونمطية تستلهم كل إمكانيات التهميش والإلغاء، ليفقد المفهوم أي إمكان للجدل والرأي والتواصل [٢].

التعريف بالاستشراق

الاستشراق لغةً مشتقٌ من كلمة شرق، وهي جهة شروق الشمس، والتشريق هو الأخذ في ناحية المشرق، وشرَّقوا ذهبوا إلى الشرق أو أتوا الشرق[٣]، ويصح أن تكون مشتقة من كلمة "إشراق" ثم أضيف إليها ثلاثة حروف هي الألف والسين والتاء، ومعناها طلب النور والهداية والضياء. والإشراق من الشرق حيث نزلت الديانات الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام. ولما كان الإسلام هو الدين الغالب فأصبح معنى الاستشراق البحث عن معرفة الإسلام والمسلمين وبلاد المسلمين عقيدة وشريعة وتاريخاً ومجتمعاً وتراثاً[٤]. والسين في كلمة "الاستشراق" تفيد الطلب[٥]. ومفهوم الشرق من وجهة نظر الأوربي يتمثل في كل ما قد وقع في اتجاه الشرق. ولم يكن مألوفاً بعدُ في مصادر العصور الوسطى الأوربية ذلك التمييز العميق الجذور الذي جاء فيما بعد بين كل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى، فقد كان الشرق بالنسبة لأوربا العصور الوسطى يمثل تلك البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، كما يمثل تلك البلاد المتغلغلة في اتجاه الشرق[٦]. وقد استعمل المحدثون كلمة "Orientalism" والتي تدل على معنى المستشرقين، أما المحققون والمدققون فيستعملون بدلاً منها "علماء المشرقيات"، ولكن لفظة "استشرق" و"مستشرق" و"استشراق" و"مستشرقين" شاع استعمالها بين الناس ولم يكن في ذلك بأس عند جمهرة الباحثين[٧].

أما تعريف الاستشراق من حيث الاصطلاح، فيعرفه المستشرق "رودي بارت" بقوله: (الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شي إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه. وكلمة استشراق مشتقة من كلمة "شرق" وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي.)[٨]. ويعتمد المستشرق الإنجليزي "آربري" تعريف "قاموس أكسفورد" الذي يعرف المستشرق بأنه:(من تبحّر في لغات الشرق وآدابه.)[٩]. ويذهب "إدوارد سعيد" إلى أن الاستشراق كدائرة في الفكر والخبرة يشير بالطبع إلى العديد من الميادين المتقاطعة، أولها العلاقة التاريخية والثقافية بين أوربا وآسيا، وهي علاقة تمتد في ٤٠٠٠ سنة من التاريخ، وثانيها النظام التدريسي العلمي في الغرب والذي أتاح في مطلع القرن التاسع عشر إمكانية التخصص في دراسة مختلف الثقافات والتراثات الشرقية، وثالثها الافتراضات الأيديولوجية والصور والأخيلة الفانتازية عن منطقة من العالم اسمها الشرق مهمة بصورة راهنة وملحة بالمعنى السياسي. والقاسم النسبي بين هذه الجوانب الثلاثة من الاستشراق هو الخط الفاصل بين الشرق والغرب وهو حقيقة من صنع البشر - يسميها "سعيد" الجغرافيا المتخيلة – أكثر من كونه حقيقة طبيعية، ولكن ذلك لا يعني القول بأن الانقسام بين الشرق والغرب ثابت لا يتبدل كما لا يعني أنه خيالي فقط. إنه بالتأكيد يعني، وتمشياً مع الجوانب التي يسميها "فيكو" "عالم الأمم" أن الشرق والغرب حقيقتان أنتجهما البشر ويتوجب بالتالي أن يدرسا كعناصر مكونة للعالم الاجتماعي. وليس العالم المقدس أو الطبيعي. ولأن العالم الطبيعي ينطوي على قيام الشخص أو الموضوع بالدراسة، فمن المحتوم إدخالهما بعين الاعتبار عند النظر إلى الاستشراق لأنه ما من استشراق بدون مستشرقين من جهة أولى، وبدون شرقيين من جهة ثانية[١٠]. أما الدكتور "علي بن إبراهيم النملة" فيعرف الاستشراق بأنه: (ظاهرة محددة بدراسة علوم المسلمين من غير المسلمين، بغض النظر عن الوجهة التي ينطلق منها المستشرق، سواء أتى من الغرب أم من الشرق، بل إني أزعم أن العرب غير المسلمين الذين يدرسون الإسلام يدخلون في مفهوم الاستشراق.) [١١].

وبالإضافة إلى التعريف الذي اتسم بالعمومية والذي تناول التعريف اللغوي والاصطلاحي للاستشراق آنفا، يوجد مفهوم خاص بالاستشراق وهذا المفهوم يعني الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط ولغته وآدابه وتأريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام، ويطلق على الذين يقومون بتلك الدراسات "المستعربون"(١٢). ولا بد أن نلحق بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين حتى إن بعض هؤلاء التلاميذ تفوق على أساتذتهم في الأساليب والمناهج الاستشراقية، ويدل على ذلك احتفال دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء ونشره باللغات الأوروبية على أنها بحوث علمية رصينة أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين إلى اللغات الأوروبية(١٣).

أما مفهوم "المستشرقين" فيعنى بالكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية، ويمكن تصنيف أسمائهم بشكل يقترب من تصنيف الطبقات في التاريخ، وهم في هذا النحو على صنفين:

من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل "جربر أورياك" والقديس "توما الأكويني"، وطبقة المحدثين مثل "كاره دوفو" و"جولد تسيهر".

من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين: فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها والمشوهين لسمعتها(١٤).

وفي ما يخص الجانب المتعلق بالمستشرق، فإن شخصيته لم تكن بمنأى عن دائرة النقاش، من حيث المحيط الجغرافي الذي ينتمي إليه، ومن حيث الدين أو الأيديولوجيا التي يحملها، ومن حيث دائرة اهتمامه، وكذلك من حيث سعة الإحاطة بالموضوع الذي ذهب مستشرقا للبحث والتقصي فيه(١٥). وعلى هذا الصعيد يذهب البحث إلى عين ما ذهب إليه "محمد جلاء إدريس" إلى إن المستشرق ليس بالضرورة أن يكون غربياً، فالمستشرقون الإسرائيليون – مثلاً – يقيمون في الشرق، وينتمون جغرافياً للشرق. كما أن حصر أعمال الاستشراق على أهل الذمة، سوف يُخرِج كماً كبيراً وهاماً عن دائرة الأعمال الاستشراقية قام به مستشرقون لا ينتمون لليهود ولا للنصارى، فهناك العلمانيون والملحدون، ولعل إنتاج المستشرقين الشيوعيين ممن هم ليسوا بأهل ذمة ولا أهل دين، دليلٌ على سقوط شرط الانتماء لأهل الذمة الذي يسقطه البعض من المهتمين بمباحث الاستشراق في شخصية المستشرق. أما في ما يخص إحاطة المستشرق بموضوع بحثه الخاص بالشرق، فإنه من المفترض أن يكون اشتراط العلم للباحث الذي يخوض دراسة موضوع ما – أياً كان هذا الموضوع – هو أمرٌ لا مناص منه، ومع هذا توجد أعمالٌ عديدةٌ تحتسب ضمن اهتمامات الاستشراق، وتُحسب له، خاض أصحابها غمارها دون علم بها، وليس من دليل على ذلك أكثر من العديد من المستشرقين الذين كتبوا عن القرآن ولا يعرفون العربية، وكتبوا عن أركان الإسلام ولم يطلعوا على أي منها(١٦).

البدايات

إن هذا البحث يهدف إلى ضرورة إعادة النظر في الأسس التي صُنِّف بموجبها الاستشراق من حيث البدايات، إذ لا بد من الوقوف على الدلالة المفاهيمية لمفردة الاستشراق، لكي يتسنى بعد ذلك الوقوف على ذات المفردة بعد أن تعرضت لأدوات الذين عملوا على توظيف هذه المفردة لغايات تخدم مصالحهم أو مصالح الدوائر التي عملوا لمصلحتها، وليس من شك فإن البون بين والفرق شاسع بين المفهوم العلمي وبين المصطلح الموظَّف، كما أنه ليس من شك في كون التعاطي مع المفهوم هو أسهل وأيسر من التعاطي مع المصطلح، بسبب درجة النقاوة العالية التي يتمتع بها الأول والضبابية الكبيرة التي يمكن أن تعتري الثاني.

إن "مفهوم" الاستشراق المتعلق أبداً بالنزوع نحو المعرفة واكتشاف المجهول، قام على الترحال والتجوال في بقاع جديدة وغريبة، واكتشاف طبيعة تلك البقاع وطبيعة المجتمعات التي تسكنها ليتعرف الرحالة بتلك البقاع ويعرفها لأهل بلده بغية زيادة المعرفة الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والفلسفية، وهذا السلوك في جوهره سلوك يترجم واحدية الفكر البشري واشتراك النوع البشري في الخاصية التي ترفعه عن باقي الأنواع التي تعيش على ظهر الأرض، وهو

سلوك الاجتماع والتواصل للتطور، وليس سلوك الاجتماع والتواصل لحفظ النوع(١٧). وقد أدت العودة إلى "المفهوم" إلى تحطيم مقولة "المعجزة" التي شيدت عليها العديد من المجتمعات مبانيها المعرفية والسياسية، وعلى رأسها كان المجتمع اليوناني الذي كان نسيجه الفكري يحيا بواسطة الإدمان على نظرية أنه الذي وصل إلى ما كان قد وصل إليه على غير مثال سابق، حتى عاد إليهم من غادرهم مستشرقاً ليخبرهم بأنهم غير الذي يقولون وأنهم ليسوا أول من صنع الحضارة والثقافة والمدنية على غير مثال سابق(١٨)، والتي تأثر بها كثير من المستشرقين ولعل أبرزهم كان "آرنست رينان" الذي ذهب إلى أن الفلسفة الإسلامية ليست سوى فلسفة اليونان القديمة مكتوبةً بحروفٍ عربية(١٩).

لقد اختلف المفكرون كثيراً حول تحديد بداية حركة الاستشراق على أقوالٍ عدة*، وإن كان قول من أرجعه للقرن السادس عشر الميلادي أكثر وضوحا، ولا يمنع أن يكون هناك محاولات غير منظمة ظهرت قبل هذا التاريخ من القرن العاشر الميلادي(٢٠)، فقد قام الاستشراق في البداية على جهود فردية لم تكن ذات تأثير على مجرى التفكير الغربي، مما أدى إلى عدم اتخاذ نقطة بداية للاستشراق لدى بعض الباحثين(٢١). وقد انعكس عدم الاتفاق على مضمون محدد للاستشراق، وهوية واضحة للمستشرق، على عملية التأريخ لهذه الظاهرة، فتعددت الآراء وتباينت الاتجاهات، وربما كان هذا التعدد والتباين بسبب فهم الباحثين للاستشراق، ويذهب البحث إلى القول بأن تحديد تأريخ معين لكل من مفهوم الاستشراق من جهة والقضايا المتعلقة بالنشاط الاستشراقي من جهة أخرى، قد أصبح ضرورة لا محيص عن التوسل بها، وهذا يأتي انطلاقاً من مبدأ التخصص في دراسة التاريخ والذي يجعل من الأشعة المسلطة على موضوع الدراسة أكثر تركيزا وأقدر على الكشف عن دقائق وحيثيات الموضوع.

ففيما يتعلق بالتأريخ لمفهوم الاستشراق يمكن القول بأن أول استعمال لكلمة "مستشرق" يعود إلى سنة ١٦٣٠ حين أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية(٢٢)، وأن تبني كلمة "مستشرق" في اللغة الانكليزية قد كان حوالي سنة ١٧٧٩م، فيما ظهرت كلمة "استشراق" في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨م، وعلى هذه الصورة من التطور اللغوي دخل الاستشراق إلى القاموس العربي مترجماً عن المصطلح Orientalism (٢٣). وقد جاءت عملية "استيلاد" مفهوم الاستشراق تلبيةً للحاجة إلى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق، فقد كانت الحاجة ماسة لوجود متخصصين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلمية(٢٤). أما إذا قُصد إلى عملية "التأريخ" لظهور قضايا الاستشراق، فسوف يكون بالإمكان رد الكثير منها إلى البدايات الأولى لظهور الإسلام وبعثة النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) عندما علم الغرب بها حين كانت وفود النبي (صلى الله عليه وسلم) تُرسل لقيصر الروم وغيره، مما دفع الغرب إلى توجيه اهتمامه إلى هذا الدين الجديد وأصحابه(٢٥)، ويرى البعض أن نشأة الاستشراق ترجع إلى بداية الغزوات والفتوح الإسلامية، وبخاصة مع غزوة "مؤتة" في شمال جزيرة العرب في السنة الثامنة للهجرة، والتي تعد الانطلاقة الأولى للمد الإسلامي، تلك الانطلاقة التي ينظر إليها كأول محاولة لتهديد الوجود غير الإسلامي آنذاك(٢٦). وهذه القضايا التي تتاخم الاستشراق يمكن إدراجها ضمن "الاستشراق البسيط" وهي مرحلة يرى البحث أن بيان حدودها أمر ضروري بغية الوصول إلى مفاهيمية دقيقة لإشكالية الاستشراق والتي توقفنا على "الاستشراق المنظم".

لقد تبلورت دلالات الاستشراق حينما عَمَّ الإسلام بلاد الأندلس، وانهزمت أمامه جيوش الغرب العسكرية، وبان عوار تأخره ثقافياً وحضارياً، فما كان منه إلا أن وجه كل اهتمامه للتعرف على هذه القوة التي قهرته وتغلغلت في أرضه حتى دكت أبواب دوله وعواصمه، فأرسل طلابه ينهلون من العلوم الإسلامية في معاقل العلم في ديار الإسلام، فترجموا كثيراً من كتبه وعلى رأسها القرآن الكريم للتعرف على هذا الدين، كما طلبوا مدرسين يعلمونهم في مراكز العلم عندهم، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على اهتمامهم بالشرق الإسلامي من وقت مبكر. ومن تلك البعثات الدراسية التي جاءت تنهل العلم من ديار الإسلام:

١- البعثة الفرنسية برئاسة الأميرة "إليزابيث" ابنة خالة "لويس السادس" ملك فرنسا.
٢- البعثة الإنكليزية برئاسة الأميرة "دوبان" ابنة الأمير "جورج" صاحب مقاطعة ويلز.
٣- البعثة الإسبانية التي كانت سنة ١٢٩٣م، والتي بلغ تعداد طلابها ٧٠٠ طالب وطالبة، وكان من بين هؤلاء الطلاب بعض الرهبان، فرجع هؤلاء لبلادهم يحملون علوم الشرق الإسلامي[٢٧].

وكان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات الشرق لغرض التنصير "جربر دي أورياك ٩٣٨ – ١٠٠٣م" وهو "البابا" رقم ١٤٦، وأول "بابا" فرنسي يخلف أول ألماني، وهو الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم عند العرب، وعلى أيدي العرب في إسبانيا[٢٨]، وقد قصد الأندلس وأخذ من أساتذتها في مدارس ريبول وأشبيلية وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره ثقافةً بالعربية والرياضيات، ولما ارتحل إلى روما سما على أقرانه وانتخب حبراً أعظم باسم "سلفستر الثاني"، وأمر بإنشاء مدرستين عربيتين الأولى كانت في روما وكانت تعد قبلة المستشرقين الأوروبيين وساهمت في صبغ الاستشراق بالصبغة الفرنسية مدة من الزمن[٢٩]، والثانية كانت في رايمس وهي موطنه الأول، ثم أضيف إليها مدرسة شارتر[٣٠]. وكذلك برز اسم "قسطنطين الأفريقي ت ١٠٨٧" الذي ولد في قرطاجنة، ورحل إلى خراسان وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند، وقد ترجم العديد من الكتب في الطب والفلك من العربية إلى اللاتينية عن "إسحق بن عمران" كما ترجم كتاب "العلاج العام" الذي ألفه "إسحق الإسرائيلي" وكتاب "التقاسم" و"زاد الحاضرين" لتلميذه "أحمد بن الجزار" – وجميعهم قيروانيون – والقسم النظري من كتاب "الملكي" الذي وضعه "علي بن العباس"، وبعض رسائل "الرازي"، ولكنه انتحل بعض ما ترجم ككتاب "المقالات العشر في العين" الذي ألفه "حنين بن إسحق" فجعل عنوانه "كتاب قسطنطين الأفريقي في طب العيون"، وقد جمعت آثاره وعددها ٢٤ مصنفا ونشرت في ليون سنة ١٥١٥، وبال بسويسرا سنة ١٥٢٩. وكذلك لمع اسم "أدلر ١٠٧٠ – ١١٣٥" المولود في مدينة باث البريطانية والمنسوب إليها، والذي انخرط في سلك الرهبان، وطلب العلم في تور والأندلس وصقلية ومصر ولبنان وأنطاكية واليونان والقدس، وعند عودته عين معلماً للأمير "هنري" الذي أصبح فيما بعد الملك "هنري الثاني"، وأهدى إليه أحد كتبه، وقد تضلع من ثقافة العرب الذين آثر مذهبهم على مذهب أهل بلاده. وكذلك اشتهر "يوحنا بن داود الإسباني" الذي عاش منتصف القرن الثاني عشر، ترجم فلسفة "ابن رشد"، كما ترجم كتاب "السياسة" الذي ألفه "أرسطو" عن ترجمة "ابن البطريق"، وكتاب "الجبر" لمؤلفه "الخوارزمي"، وصنف كتاباً بعنوان "كتاب الخوارزمي في الحساب العملي"، وكتابي "القبيسي" في النجوم وأبعاد الكواكب. ومن الأعلام المهمة في عالم الاستشراق كان "يوحنا الإشبيلي" الذي عاش منتصف القرن الثاني عشر، والذي ترجم أربعة كتب لـ "أبي معشر البلخي"، كما ترجم "رسالة في الاسطرلاب العربي" الذي ألفه "المجريطي"، وكتاباً في "آلات الساعات" لـ "ثابت بن قرة". وبالإضافة إلى هؤلاء النَقَلة انخرط في سلك الاستشراق كثير من الرهبان مثل "روبرت أوف تشستر" و"دومنغو جونثالث ت ١١٨١" و"جيرار دي كريمونا ١١١٤ - ١١٨٧" و"ميخائيل سكوت ١١٧٥ – ١٢٣٦" و"ليوناردو فيبوناتشي ١١٧٠ – ١٢٤١" و"توما الأكويني ١٢٢٥ – ١٢٧٤" و"رايموند مارتيني ١٢٣٠ – ١٢٨٤"[٣١]، بالإضافة إلى "روجر بيكون ١٢١٤ – ١٢٩٤م" و"ريموند لولويو ١٢٣٥ – ١٣١٤م" واللذان كان لهما الأثر الكبير في إنشاء كَراسٍ لتدريس اللغة العربية في الجامعات الغربية على أثر قرارات مجمع فيينا الكنسي سنة ١٣١٢م[٣٢]، مثل كُرسي أوكسفورد عام ١٦٣٨ وكامبريدج عام ١٦٣٢ [٣٣]. وكان تأسيس الجمعيات العلمية مثل الجمعية الأسيوية البنغالية والجمعية الاستشراقية الأمريكية والجمعية الملكية الآسيوية البريطانية وغيرها بمنزلة الانطلاقة الكبرى للاستشراق حيث تجمعت فيها العناصر العلمية والإدارية والمالية فأسهمت جميعها إسهاماً فعّالاً في البحث والاكتشاف والتعرف على عالم الشرق وحضارته فضلاً عما كان لها من أهداف استغلالية واستعمارية[٣٤]. إن إمعان النظر في تاريخ الاستشراق المرتكز إلى معرفة الظروف المحيطة بتبلور النشاط الاستشراقي، سوف يجعل من السهل الاستدلال على أن المؤلفات

الاستشراقية الأولى التي اختصت بالشرق قد غلب عليها الطابع العدائي الحاقد على الإسلام وعلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأن هذه الدرجة من العدائية ما كانت لتظهر بهذا المستوى لو أن هذه المؤلفات كتبت في ظل ظروف طبيعية، وعليه لا فلا بد من القول إنها كتبت أثناء الحملات الصليبية على الشرق الإسلامي- التي بدأت التعبئة لها في مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م على عهد البابا "أوربان الثاني ١٠٨٨ – ١٠٩٩م" - وفي ظل احتدام الصرع المسيحي/ الإسلامي. ومن جهة أخرى فإن ظهور التوجه المسيحي نحو بلاد الأندلس الإسلامية للدراسة والتعلم على يد المسلمين، والذي كان من ثمراته إعجاب الطالب المسيحي بلغة العرب وعلومهم، هذا الظهور وما نجم عنه من انطباعٍ إيجابي في نفس المواطن الغربي والذي سبق الحملات الصليبية، لم يوجد له أثرٌ مدونٌ في المؤلفات الاستشراقية القديمة[٣٥]، وقد جرَّدت تلك المنهجية العدائية في تعاملها مع الإسلام، المستشرقين من الموضوعية والأمانة العلمية، بحيث استمرت هذه الدراسات تغذي الأجيال اللاحقة من المستشرقين[٣٦]. الأمر الذي يدفع وبقوة إلى الاعتقاد بأن العمل الاستشراقي "المنظم" لم يبدأ إلا في ظل ظروف الحروب الصليبية[٣٧]، وفي ظل الفشل الذي لحق بمجمل تلك الحملات على العالم الإسلامي. فبعد ذلك الفشل أدرك الغرب أن قوة المسلمين من الصعب بمكان تفتيتها وتجزئتها، سلك الفكر الغربي المتعصب سبيل التبشير وهو الأسلوب الذي رأى أنه الأمثل لتحقيق الهدف المنشود لتغيير الواقع المشهود، وشتان بين الحالين، حال التوحد والقوة وحال الفرقة والتشرذم. فقد ركز التبشير على كسر الوحدة الإسلامية، لأنه كان يؤمن أن الإتحاد الإسلامي إذا تحقق أصبح لعنة وخطراً على العالم، وإذا ما سيطرت الفُرقة على بلاد الإسلام، فإنه يظل حينئذٍ بلا وزنٍ ولا تأثير. لذلك سعى المبشرون بتبشيرهم إلى تحويل مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية من أجل تغلغل النصرانية في المسلمين وهذا ما دعى إليه المبشر "لورنس براون"[٣٨]. وقد اتفق الباحثون والمؤرخون على إن الإرساليات التبشيرية التي حلَّت محل الحملات الصليبية كانت طليعة الغزو الاستعماري الجديد، وقد ركَّزت تلك الطلائع على استدراج الشعوب الإسلامية نحو الحضارة الغربية، انطلاقاً من القاعدة التبشيرية القائلة بأنه متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب أمكن رؤية العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه، وهذا ما رسخته أفكار المبشر "وليم بيل كراف" وغيره في أذهان الغرب[٣٩].

بواعث ودوافع الاستشراق

إذا ما تناولنا النشاط الاستشراقي على مستوى السطح، فسوف يكون من السهولة ملاحظة مجموعة من العوامل التي تظافرت لتشكيل مفهوم الاستشراق، منها ما هو نفسي يكمن في طبيعة الإنسان نفسها من حيث هو كائن حي مفكر، له خصائصه، وله آماله وأحلامه وأطماعه، وله أهدافه ونزواته ورغباته وإحساساته، ولا بد له أن يتمتع بوجوده المادي والفكري والنفسي على حدٍّ سواء، ومن هذه البواعث رغبة الإنسان الطبيعية في المعرفة والإطلاع ونزعته الظامئة للتعرف على حياة الآخرين وأفكارهم، وغريزته التواقة لمعرفة أخبار الناس وأسرارهم وخباياهم ولذته في تحمل المصاعب للوصول إلى ميادين مبهمة، ومسائل غامضة وشغفه الشديد بالتجارة، وكسب الأموال واكتناز الخيرات والسيطرة عليها وولعه الكامن في نفسه للسيطرة على الآخرين، وجعلهم يتعلقون به، ورغبته الشديدة في أن يعتنق غيره ما يعتنقه هو من عقائد وأفكار وسياسة وفلسفة، وميله إلى التفوق على غيره بطريقةٍ أو بأخرى، وأخيراً بحثه المتواصل في عقيدة الآخرين للتأكد من سلامة عقيدته واتجاهه ومذهبه في الحياة، وهدفه منها، فالإنسان مفطور على حب الاطلاع. ولذلك كله كان للرحلات التي قام بها الأوربيون في بلاد الشرق، ولِما قصُّوه عن مشاهداتهم فيها أثرٌ بالغٌ في تاريخ الاستشراق، ودور لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة تلك البلاد، ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضارتها. وإذا ما أُخذ بنظر الاعتبار جاذبية الشرق وروعة مآثره من قديم الزمان، وما أحدث الإسلام فيه، فإن الإنسان لا بد أن يلهبه الشوق إليه[٤٠].
وكذلك من البواعث ما هو ديني تمثل في الرغبة في نشر الديانة المسيحية، وتبليغ دعوتها، وتصوير الإسلام تصويراً يثبت فضل المسيحية ورجحانها عليه، ويبعث في الطبقة المثقفة إعجاباً

بالمسيحية وحرصاً عليها، للحيلولة دون دخول بقية طبقات المجتمع في الإسلام، ولذلك تم التركيز على إثارة الشبهات والأباطيل حول القرآن خاصةً والإسلام عامة، ولذلك يُلاحظ أن الاستشراق والتبشير يسيران في أغلب الأحوال معاً. ومن تلك العوامل ما هو سياسي تمثل في شعور بعض المستشرقين بالواجب في إمداد دولهم بالمعلومات عن الشرق في كل شؤونه، لكي يتسنى لتلك الدول بسط النفوذ والهيمنة على الشرق. أما العامل الاقتصادي فقد تمثل في أن الكثير من المثقفين قد اتخذ من الاستشراق تجارة رابحة ومهنة ناجحة، فشجعوا نشر الكتب التي تدور حول الإسلام والعلوم الشرقية، واشرفوا على نشرها لما يرون لها من سوق رائجة في أوربا وآسيا وغيرهما من بلدان العالم اليوم. أما العامل العلمي المحض فقد كان ذا تأثير محدود في نشأة الاستشراق، إذ أن عددا قليلاً فقط من المستشرقين كان الشغف العلمي غايتهم في رحلاتهم الاستشراقية. وتعد هذه العوامل من الأسباب الرئيسية في نشأة الاستشراق ودفع عجلته للأمام(٤١).

ومن أجل الوقوف على العوامل التي دفعت إلى بلورة الاستشراق على صيغته الحالية التي تمظهرت بالشكل الاستعماري الذي بدأ بالتبشير وانتهى بالتدمير، فلا بد من تشريح دقيق لهذه الظاهرة بغرض الوقوف على تلك الأسباب والدوافع والبواعث، الأمر الذي سوف ينقلنا مباشرة إلى مستوى العمق، وهذا التشريح لابد من أن يبدأ من الوقوف على أسباب تكاثف وتضخم الشعور بالتفوق في الروح الغربية، فهذه الطاقة المتضخمة كان لا بد لها من أن تجد لها مَصْرِفاً بدونه لن تكتمل دورة حياة الغرب، فهذا المَصْرِف يلعب دورين مزدوجين في نفس الآن، فهو خافض للضغط الداخلي الناجم عن الزيادة في الإنتاج، وعن الرغبة التي لا تهدأ في الربح وتكديس الثروات التي شرعتها الفلسفة السياسية الغربية التي كانت فاتحتها فلسفة "توماس هوبس" وعززتها فلسفة "جون لوك"، وهذا من جهة، وهو كذلك مستودع الطاقة التي لا يمكن للغرب أن يستغني عنها، وهذا المستودع يقع جغرافياً على مقربة من مجموعة من الأنظمة السياسية التي تضمر العداء للغرب، الأمر الذي مكَّن الإستراتيجيا الغربية من تحويل هذا الشعور بوجود الخطر الكامن إلى قوة تدفع الإدارات الحاكمة في الغرب نحو الأمام في سبيل المحافظة على سلامة تدفق النفط نحوه. فعندما تغضب آلهة الغرب حينما تشعر بالفراغ الماهوي فسوف لن تجد غير الشرق مُصَرِّفاً لِسَوْرَاتِ غضبها، وهذا ما دلت عليه الحروب الكثيرة التي دارت رحاها على أراضي الشرق سواء أكان في وسطه أو كان في أقصاه، وعندما يتولد لدى آلهة الغرب شعور بالخوف من خطر محتمل فلن تختار سوى أرض الشرق مكاناً لتصفية حسابها مع العدو المحتمل وهذا هو حال الاستشراق في صوره الأخيرة التي تم إخراجها على الطريقة الأمريكية.

وكي لا نبتعد عن موضوعة الاستشراق ونستغرق إلى حد الغرق في وصف الزاوية التي ننظر من عبرها إليه، نقول إن الفكر الاستشراقي الغربي قد انطلق نحو أهدافه بقوة وثبات بعد أن ولد قوياً بعد مخاضٍ طال زمنه واستغرق زهاء ما يربو على ستة قرون وهي الفترة الواقعة ما بين القرن الثالث الميلادي والقرن التاسع الميلادي، كان الشرق بعدها قد شرع في دخول نفق السجالات الفكرية المظلم والذي لمعت في غياهبه سيوفٌ كثيرةٌ كلها أُشهرت لتدافع عن الإسلام، وجل حامليها لم يقرأ النص المنقول إلا قراءة اجتزائيةً اضطرته إلى تأويل المحكم فضاع في متاهات المتشابه. فتفرقوا واختلفوا وولجوا عوالم الحنادس بعد أن كانوا شمساً تسطع على الآخرين.

التوظيف الأيديولوجي للاستشراق

إذا ما نظر إلى الشرق من المنظور الجهوي الموَظَّف، فسوف يُلاحَظ أن كلمة "شرق" على الرغم من كثرة استعمالها منذ حوالي ألفي سنة على الأقل، ليس لها مفهوم واضح محدد وثابت، وهي لا تدل على الجهة التي تشرق منها الشمس – وهذا لا يتقاطع مع التعريف اللغوي للمفردة - ، فكل بقعة من الأرض هي شرق وغرب في وقت واحد بحسب ما يكون موقع الشخص الذي يتحدث عن هذه البقعة. ومع بروز اتجاهاتٍ جديدة على صعيد الدراسات التاريخية العلمية سوف تزداد سرعة تواري عقدة الجهات أمام هيمنة النظريات الذاهبة إلى أن هذه العقدة الجهوية إن هي إلا توظيف لاتجاهٍ معين من الاتجاهات لمصلحة من يقطن في الجهة المقابلة له، وهذا ما يبدو

جلياً عند الفلسفات ما بعد البنيوية، إذ دعمت هذا التصور مدرستا "المادية الثقافية Caltural Materialism"، و"التأريخانية الجديدةNew Historicism" ، في أواسط الثمانينات من القرن العشرين في بريطانيا والولايات المتحدة، وتعمقت هذه الرؤية بنظرية "فيليب فرنانديز آرميستو" سنة ٢٠٠٥ عن إعادة كتابة التاريخ Rewriting History، والذي قلب كل المفاهيم الغربية منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى فترة النهضة المتأخرة، فأصبح انهيار الإمبراطورية الرومانية عنده لا يعدو أن يكون نهاية للعصور القديمة، ونفى مفهوم اكتشاف العالم الجديد لأنه لا يوجد اكتشاف إلا في عين الأوربي ولا يوجد عالم جديد إلا عند الأوربيين ولم يعد الإصلاح الكنسي مع "مارتن لوثر" و"كالفن" إصلاحا بل هو مجرد تحول سياسي محلي محدود التأثير(٤٢). ويبدو أن "هيرودوتس" كان يدرك مفهومي الشرق والغرب، ففي كتاباته أطلق مفهوم الشرق على منطقة آسيا، ومفهوم الغرب على منطقة أوربا، وعلى ما يبدو فإن هذا الإدراك جاء متأثراً بالحرب الفارسية اليونانية، التي تركت تأثيراً عميقاً على اليونانيين، فجعلتهم ينظرون بأهمية بالغةٍ إلى الرقعة الجغرافية الواقعة شرق بلادهم ويعبرون عنها بمفهوم الشرق. وفي عهد الرومان حيث كانت مدينة روما تمثل المركز الأهم في العالم الغربي، عُني بمفهوم الشرق تلك البلاد الواقعة شرق إيطاليا، وتجلى هذا الفهم بشكل واضح بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥م إلى الإمبراطورية الغربية والإمبراطورية الشرقية، وتبعه الخلاف المذهبي بين البابوية في روما وبين البطريركية في القسطنطينية ما أدى إلى قيام الكنيسة الشرقية "الأرثوذكسية" إلى جانب الكنيسة الغربية "الكاثوليكية"(٤٣).

ثم تطور الفهم الغربي للشرق، فصار بعد ظهور الإسلام، وتوسع دولة المسلمين، يطلق عموماً على البلاد الإسلامية. وأثناء الحروب الصليبية أصبح الدين الإسلامي رمزاً للشرق، وأوربا رمزاً للغرب. وهنا لا بد من القول بأن نظرة العالم الغربي للشرق، على الرغم من قدمها، إلا أنها لم تكن إلا مزيجاً من الشعور بالخوف، وعدم الإطمئنان من الشرق، وبأنه ذلك الآخر الذي لا بد من التغلب والتفوق عليه. ونتيجةً لهذا الشعور ترسَّخت في أذهان الغرب نظرة الغرب إلى الشرق كنظرة عداءٍ وتعالٍ لم تستطع إزالتها من الذهنية الغربية حتى الأقلام المنصفة والمؤثرة في القارئ الغربي، وكأن هذا الشعور أضحى شعوراً مكتسباً عند الغرب، كما يكتسب الوليد بالفطرة فن الرضاعة من صدر أمه(٤٤)، وكل تلك التصورات للشرق إنما تدل على أن تاريخ التوظيف الأيديولوجي لمفهوم الشرق هو تأريخ تمتد جذوره عميقاً في الزمن الماضي.

لقد تعرض حقل الاستشراق إلى سلسلة من التغييرات والتعديلات التي كانت تتطور تماشياً مع جملةٍ من الأهداف المسبقة للأطراف التي كانت تتناوب على السيطرة على مسرح التاريخ العالمي في مختلف الأزمنة. فالهزة الإبستمولوجية التي عرفتها العلوم الإنسانية أمست تفرض ضرورة تعريف الاستشراق بوصفه منهجاً شغله المستشرقون على مادة معرفتهم التي هي الشرق بتحويله إلى موضوع للدراسة والبحث والتمثل والتمثيل والتقويم مما جعل الاستشراق يُبدع، على صعيد التصور، شرقاً، متخَيَّلاً لا صلة له بالشرق الحقيقي، يحول الشرق إلى مرآة يقرأ فيها ذاته. فالغرب منذ العصور الوسطى ينظر إلى ذاته كغرب عبر نظرته إلى الشرق المختلف. ولم يفعل الشرقيون في تصديهم للاستشراق سوى أن كرسوا نفس الآليات الأيديولوجية مما جعلهم لا يفرزون، في الغالب، إلا استشراقا معكوسا يخلق غربا متخيلاً(٤٥).

لقد كانت فترة الحداثة التي شهدتها أوربا هي السبب الأبرز لإصابة الغرب بمتلازمة المركزية الغربية. فقد قامت الحداثة على أسسٍ جديدةٍ كلياً، ويكاد فعل قيامها يكون راديكالياً نازعاً نحو تقويض كل الموروث واقتلاعه من جذوره، هادفاً إلى إقامة بناءٍ جديدٍ يتواءم مع فلسفة الحداثة الثائرة. فالانطلاق من مفهومٍ للتقدم المطرد بخطٍ مستقيم لا يلوي على شيء، ومن ثقةٍ مطلقةٍ تداني الجبرية بالعقل والعقلانية ومن علمٍ كلي القدرة، إضافة إلى الانطلاق من مبدأ الحرية والمساواة المدنيتين، وقد نجم ذلك كله إبان عصر الأنوار حين حصل فيه الوعي لسكان القارة الأوربية بأنهم مجموعة بشرية متميزة ينتظرها مستقبل زاهر، وليس من المهم أن تكون أصغر أجزاء العالم من حيث مساحة أرضها، ما دامت أكبر من غيرها على مستوى التجارة والملاحة

والخصب وعلى مستوى أنوار شعوبها وصناعتهم ومعارفهم وفنونهم وعلومهم ومواردهم، وأهم من ذلك كله المسيحية التي تقود أخلاقها نحو السعادة للمجتمع كله[٤٦]. إن ذلك مجتمعاً أفضى إلى تكوين نماذج أساسية إستراتيجية عُمِّمت في سائر الحقول المجتمعية، سواءٌ منها المادية أو الثقافية والروحية، ومن موقع هذه النماذج نُظِر إلى الآخر القابع وراء أوربا بالاعتبارين النظري والقيمي، ولعل هذا القول يضع اليد – على الأقل – على واحد من المفاصل التي انطلقت منها الحركة الاستشراقية الغربية الحديثة، ويلاحظ في واحد من أوجهها الكبرى الحاسمة تشخيصاً وتخصيصاً شرقياً للنزعة المركزية الأوربية التي كانت قد أفصحت عن نفسها على نحوٍ أوليٍّ لدى "هيجل" [٤٧]، فقد كان هذا الفيلسوف ممهداً لأخطر تصور استشراقي استفادت منه الكثير من النظريات "الكليانية" أو "الشمولية" والعرقية ضداً على الجدل الهيجلي ذاته، وينبغي هنا تذكر الكيفية التي حدد بها "هيجل" أصل الفلسفة حيث اعتبرها ذات أصول غربية خالصة، فالفلسفة، حسب "هيجل" دائما، وُلدت في أرض اليونان إبان القرن الخامس قبل ميلاد المسيح مع "سقراط"، حيث تم اكتشاف مبدأي الذاتية والحرية اللذين لم يكن بمقدور الصينيين أو الهنود أو الفرس أو المصريين إدراكهما، لأنه يعتقد بأنهم كانوا مفتونين بالوحدة إلى حد يجعلهم جاهلين تماما بمفهوم عن الفرد يكون فيه حرا ومالكاً لحقوق، أو لأنهم كانوا، وعلى العكس من ذلك، غارقين في عبادة تامة للاختلافات، منغمسين في تأليه الطبيعة، وهو ما جعلهم عاجزين عن ممارسة النشاط المفاهيمي الذي يستدعي فصلا بين الكلي والجزئي. كل ذلك من دون الحديث عن الأفارقة الذين كان "هيجل" يشك حتى في كونهم أناسا[٤٨]. وبهذا يمكن القول إن فلسفة "هيجل" التاريخية ليست سوى تبرير نظري لمشروعية هيمنة السيد العقلاني على الإنسان الشرقي الغارق في ضلالات الوهم والتعصب[٤٩]، إذ وصف أفريقياً بأنها تمثل الروح غير المتطور الذي لا تأريخ له، ولا تطور ولا نمو، ولا يزال منغلقاً تماماً وفي حالة الطبيعة المحض[٥٠]. وقد كانت السمة البارزة لتلك الحركة الاستشراقية هو النزوع الأيديولوجي التسويقي إلى إظهار الثقافة الغربية بمثابة بنية واحدة ذات نسق واحد وبُعدٍ واحد وهو ذاك الذي يقوم على التمويه على الغرب كما على الشرق كليهما. فالحركة الاستشراقية – وهي من ثمرات الحداثة والمشروع الحداثوي الغربي – تقدِّم الغرب بوصفه تلك البنية لشعوب الغرب ذاتها ولشعوب الشرق، بقدر ما تقدم الشرق كذلك بمثابة بنية واحدة وذات نسق واحد وبُعدٍ واحد لشعوب الشرق ذاتها ولشعوب الغرب، فتنجز بذلك وعياً أيديولوجياً وهمياً وتوهيمياً يضع الفريقين المذكورين "الغرب" و"الشرق" في موضع التقابل والتضاد المؤسسين معرفيا[٥١]. فالشرق لم يكن عنصرا دونياً لهذه الثنائية على الدوام فبالنسبة للبيزنطيين عُد الشرق المركز الأكثر حظوة للعالم الأوربي المتحضر ولعدة قرون بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في وقت لم يكن الغرب مقرونا سوى بالبربرية والغلظة، ولم يتم تحويل الشرق مبدئياً إلى العنصر الأقل امتيازا في الثنائية إلا بعد أن سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ وأفول الكنيسة الارثذوكسية ولاسيما مع النهوض الاقتصادي لأوربا[٥٢].

وهكذا ساعد التنظير الأيديولوجي على التسويق لصورة الشرق في الذهنية الغربية بأنه ذلك المكان الذي يمثل بالنسبة للغرب، بلاد السحر والفن، ومسكن الروح، ومنبع الخيرات، وأن بلدان الشرق، هي بلدان الثراء والكنوز، متمثلة بآثاره، ولا سيما آثار بلاد الرافدين وبلاد النيل[٥٣]، ومن ثم فإنه يمثل في ذهن الغربي تلك الأرض التي تحتاج إلى مستثمر، ولا يوجد مستثمر غيره، فهو من يمتلك العقل والتقنية متمثلة بالعلم، بينما الشرق جاهل يعيش عوالم السحر والشعوذة، ولا بد من معين يعينه على أن يعي أهمية المكان الذي يعيش فيه، وهذا لا يتم إلا عن طريق الاستعمار، تلك الكلمة التي تحمل دلالة الاستغلال وفي الوقت نفسه دلالة الاستعمار[٥٤]. تلك الفكرة التي جعلت التصور الغربي للمجتمع الشرقي على أنه مجتمع يغلب العاطفة على العقل، ويغلب الدين على العلم، وبالتالي فهو مجتمع جاهل لا يستطيع أن يدير نفسه بنفسه. ومن جملة التصورات عن العقل الشرقي هي وصفه له بأن السحر والشعوذة هما مكونين أساسيين من مكونات ذلك العقل، وأنه

ليست لديه القدرة على استثمار الأرض والخيرات نتيجة لهذه العقلية الخرافية التي تتداخل عندها الأسطورة مع الدين، مما يجعل هذا العقل بعيدا عن الإيمان بالسببية والضرورة، بمعنى أن العقل الشرقي عقل عرفاني في مقابل العقل الغربي الذي هو بطبيعته عقل برهاني استدلالي، وذلك ما ذهب إليه أغلب المستشرقين، ولا سيما "رينان" المستشرق الفرنسي الذي بنى نظريته في ضوء الاعتقاد القائم على القول بوجود عقلين: عقل سامي بطبيعته وهو عقل سحري غنوصي باطني يمثله اليوم العرب والمسلمون، وعقل آري بطبيعته استدلالي برهاني يمثله اليوم الغرب متمثلا بأوربا، ومن هنا فقد درجت الجهات الراعية لعملية التوظيف الأيديولوجي للاستشراق على تصوير الشعوب المسلمة على أنها تمثل تهديدا حقيقيا للعالم المسيحي، وقد تصورت أوربا في مطلع العصور الوسطى أن هناك شعبا هائجا اسمه العرب أو "السراسنة"**، صورتهم هذه الأسطورة على أنهم "برابرة" يغزون إسبانيا وإيطاليا[٥٥].

إن الفكر الاستشراقي يذهب للالتقاء والتزاوج بمفهوم "المعنى" المولِّد – في أغلب الأحيان – للصراع المعتمد على امتلاك عناصر القوة المتفوقة. وأقنوم المعنى المتحايث مع القوة، يمتد بظله في كل مكان من ساحة الفكر العالمي، فعلى صعيد الفكر الشرقي والعربي الإسلامي على وجه الدقة يمثل أنصار كل من الخطاب "الموجود" وأنصار الخطاب "المنشود" قوتين متصارعتين على طول جبهةٍ عريضة، ولكل فريق سلطته المهيمنة على إخراج خطابه المتضمن لرؤاه وفلسفته التي هي بمثابة القابلة المأذونة المسؤولة عن توليد المعاني. وتتمظهر أشكال القوة بجملة من تشريعاتٍ تعمل السلطة على صياغتها تأخذ هيأتها من صور "المحرم الممنوع" أو "المبارك المشروع"، تستمد فاعليتها من الطبقة المحكومة المضطرة إلى التوجه نحو "المبارك المشروع" والعزوف عن "المحرم الممنوع" عِبر طقوس أيديولوجية هي في الأغلب تخفي خلف خمارها رفضاً مضمراً قد ينتمي إلى نطاق النفاق الثقافي وقد ينتمي إلى نطاق الكر والفر ريثما تتوفر له مقومات التمكين المؤهِّلة للقيام بثورة على "الموجود" لصالح تحقيق "المنشود" في حركةٍ تشبه إلى حد كبير الحركة الدائرية لتأريخ يسير بمنطق العود الأبدي. وهذا الواقع الذي يسم التعامل مع فكرة المعنى في الشرق يجد له أصداءاً في الغرب [٥٦]، فثمة نسخ من كلا الجبهتين المتصارعتين كما توجد نسخٌ للسلطة التي تحميهما، وكذلك توجد نسخٌ لهيئات المباني التي شادتها تلك السلطات لتكون مقراتٍ لها ومراكز تشريعية تحدد ما هو محرم وممنوع وما هو مبارك ومشروع. وعلى سبيل المثال لا الحصر فالدولة العثمانية في زمن السلطان "عبد الحميد الثاني"، عرفت على أنها دولة تقوم على مبادئ الإسلام وتتخذ من مقولاته منطلقاتٍ لعملها، ومن مبادئه رسالة تحملها على عاتقها، ومن ثوابته أهدافاً تعمل على تحقيقها، وعلى الرغم من كل هذا فإنها لم تكن ممانعةً لإجراء بعض التحديث والتعديل على سياستها، وهذا الإطار التصوري للدولة العثمانية على هذه الشاكلة هو المتاخم للصواب والقريب من الحقيقة والواقع، ولكن حين تكون القوة – وهي في بعض دورات الزمن صانعةً للقرار – وتكون عناصر التفوق في يد طرفٍ آخر مختلف في الفكر والمنهج، وحاملاً لشحناتٍ أيديولوجية مغايرة للطرف الآخر الذي غالباً ما يكون ضعيف الحول والقوة فإنه ليس من الصعوبة بمكان أن يتم إخراج الدولة العثمانية في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" دولةً ذات بعدٍ قومي، يأتي الدين الإسلامي عقيدةً ومنهجاً ومبادئ في المرتبة الثانية أو الثالثة من أولوياتها، وهذا ما سار عليه المستشرق "برنارد لويس" وهو رائد الاتجاه الاستشراقي اليهودي والكتابة في الدولة العثمانية وتركيا الحديثة، والمستشرق "ستانفورد شو" الذي يعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا، وزوجته "أزل شو" وهي منحدرة من يهود الدونمة في تركيا وتعمل معه في نفس الجامعة، واللذان عنيا بتاريخ الدولة العثمانية وعكفا على دراسة وتحليل أغلب الوثائق المتعلقة بها على مدى ربع قرن أو يزيد، وقد اعتمد هؤلاء وغيرهما على أسلوبٍ مختلفٍ عن أسلوب المستشرقين القديم الذي يعتمد المباشرة والوضوح في إظهار المقاصد***، إذ يلجأ رواد هذا الاتجاه في كتابة أفكارهم إلى الحذر والدقة وافتعال حسن النية في الكتابة، وإلى المغالطة عبر لَي ذراع النص، والعبث بذهن قارئه باستخدام مصادر ضعيفة، وهذا يهدف إلى بلورة رأي يؤمَل أن يشكل تياراً مهماً ذات يوم يدعو إلى ضرورة التخلي عن تراث

الإسلام الذي عملت الكثير من المؤسسات والمنظمات الراعية للاستشراق المعاصر على تصويره على أنه أصبح تراثاً كلاً على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير.

أهداف الاستشراق

إن التعريج على الاستشراق، يعني من بين ما يعنيه، تحليل صورة الآخر الممثَّل بالإسلام أو بالعرب، وسائر الشعوب الأخرى غير الأوربية، وتفكيك الرؤية التي كونها الغرب لنفسه وللآخر أو الآخرين على الأصح، وهذا يعني أننا أمام معرفة غربية أمست الحاجة تدعو إلى نقد أسسها، ومراجعة تلك الأسس، ذلك أن كل معرفة تناول المجتمع الإنساني خلافاً لتلك التي تتناول العالم الطبيعي هي معرفة تاريخية، لذا فهي تقوم على الأحكام والتفسير. ومعنى ذلك أن الحقائق تستمد أهميتها مما يسبغه التفسير عليها، والتفاسير تعتمد اعتمادا كبيرا على من يقوم بها، وعلى من يخاطبهم المفسر، وعلى من ينشدهم هدفاً لتفسيره، وعلى اللحظة التاريخية التي يتم التفسير إبانها، وإلا كيف يستطيع المرء أن يفسر ثقافة أخرى إن لم تكن ظروف سابقة قد وضعت تلك الثقافة في متناول التفسير في الدرجة الأولى؟ وقد كانت الظروف دوما في ما يختص بالاهتمام الأوربي بالقافات العربية ظروفا تجارية واستعمارية، أو هي ظروف التوسع العسكري(٥٧).

أولاً: الهدف الديني: بدأ الاستشراق بالرهبان، واستمر على ذلك الحال لفترات طويلة نسبياً إذا ما قيس بعمر الاستشراق. وقد كان من الصعوبة بمكان التخلص من تلك النشأة ذات البعد الديني المؤدلج، ويؤيد هذه الخلفية أن الاستشراق قد انطلق من الأديرة والكنائس وقام به في البدء رهبان وقساوسة، وحتى الذين حاولوا التجرد في دراستهم للإسلام ديناً وثقافةً وتراثاً للمسلمين لم يسعهم إلا الاعتماد على الدراسات الاستشراقية السابقة التي وقعت في مشكلة هذا الصراع الحضاري، والذين أرادوا دراسة الإسلام ديناً وثقافةً وتراثاً فدرسوا اللغة العربية ليأخذوا الإسلام من لغته، وبلغته وقعوا في مشكلة محدودية الفهم للنصوص التي اقتبسوها من كتب التراث، وعجزوا عن فهمها على ما أُريدَ لها من الفهم(٥٨)، وذلك لأنهم لم يتمثلوها ولم يعيشوها فتعذر عليهم التعبير عنها بموضوعية وتجرد(٥٩). وقد تطور الاستشراق ليتمثل في التشكيك في صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والزعم بأن الحديث النبوي إنما هو من عمل المسلمين أثناء القرون الثلاثة الأولى، والهدف الخبيث من وراء ذلك هو محاربة السنة بهدف إسقاطها حتى يفقد المسلمون الصورة التطبيقية الحقيقية لأحكام الإسلام ولحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبذلك يفقد الإسلام أكبر عناصر قوته. وكذلك التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه، حتى ينصرف المسلمون عن الالتقاء على هدف واحد يجمعهم ويُكوِّن مصدر قوتهم، وتنأى بهم اللهجات القومية عن الوحي باعتباره المصدر الأساسي لهذا الدين، ولا ريب هنا في رؤية المستشرقين وهم يعزفون على وتر الفرق والجماعات الإسلامية، ويركزون دراساتهم على علم الكلام، ويسلطون أضوائهم على الفرق المتأخرة ليعطوا لها مزيدا من الطاقة والحيوية، وهذا مما تجب الإشارة إليه والانتباه نحوه وخصوصاً في الفترة الراهنة. وكذلك التقليل من قيمة الفقه الإسلامي واعتباره مستمدا من الفقه الروماني، والنيل من اللغة العربية واستبعاد قدرتها على مسايرة ركب التطور وتكريس دراسة اللهجات لتحل محل العربية الفصحى، وإرجاع الإسلام إلى مصادر يهودية ونصرانية بدلا من إرجاع التشابه بين الإسلام وهاتين الديانتين إلى وحدة المصدر، والعمل على تنصير المسلمين، مؤسسين عملهم بالاعتماد على الأحاديث الضعيفة والأخبار الموضوعة في سبيل تدعيم آرائهم وبناء نظرياتهم. لقد كان الهدف الاستراتيجي الديني من حملة التشويه ضد الإسلام هو حماية أوروبا من قبول الإسلام بعد أن عجزت عن القضاء عليه بالحروب الصليبية(٦٠).

لقد ظلت الكنيسة تتحكم في تشكيل العقلية الغربية إلى ما بعد عصر التنوير، ولم يقتصر دورها على توجيه الرأي العام الغربي وذلك بمحاولة تشكيله وفق رؤية معينة، بل امتد نفوذها إلى البلاد الإسلامية ذاتها عبر بوابة الاستشراق الموجه سلفاً، فأنشأت مؤسسات في البلاد العربية لخدمة الاستشراق ظاهرياً، ولكن هدفها في الحقيقة خدمة الاستعمار والتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي، والمثال على ذلك في مصر المعهد الشرقي بدير الدومينيكان والمعهد الفرنسي والجامعة

الأمريكية، وفي لبنان جامعة القديس يوسف والجامعة الأمريكية، يضاف إلى ذلك إشكالية ابتعاث الطلاب المسلمين إلى معاقل المستشرقين في جامعات الغرب، وما تحدثه من انشطار وازدواجية في بنية العقل المسلم أدت إلى إنجاح مخططات الاستشراق في خلق النموذج الثقافي في المجتمعات الإسلامية. وإن مراجعة بسيطة في لقائمة أعلام المستشرقين تجعل من السهل إدراك الرؤية الكنسية للاستشراق وأهمية الدافع الديني له، إذ أن هؤلاء الأعلام هم في الأساس من آباء الكنيسة وتلامذتهم، فأدى هذا إلى أن تظل الرؤية الاستشراقية ثابتة من حيث "الكيف" رغم تطورها من حيث "الكم". وعلى الرغم من أن الاستشراق قد بدأ يتخفف في القرن الثامن عشر الميلادي من ضغط الكنيسة، إلا أن صورة الإسلام المشوهة بفعل الاستشراق اللاهوتي لم تتغير في أذهان الغربيين حتى الآن. وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهراً الآن في الكتابات الاستشراقية، فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً، فهو لا يزال يعمل من وراء ستار، ومن الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام – وأكثرهم متدينون – أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية، ويهاجمها ويفندها، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء. كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها[٦١].

ثانياً: الهدف التجاري: عندما بدأت أوروبا نهضتها العلمية والصناعية والحضارية كانت في حاجة إلى المواد الأولية الخام لتغذية مصانعها، كما أنها أصبحت بحاجة إلى أسواق تجارية لتصريف بضائعها، كان لا بد للأوربيين أن يتعرفوا إلى البلاد التي تمتلك الثروات الطبيعية ويمكن أن تكون أسواقاً مفتوحة لمنتجاتهم. فكان الشرق الإسلامي والدول الأفريقية والآسيوية هي هذه البلاد فنشطوا في استكشافاتهم الجغرافية ودراساتهم الاجتماعية واللغوية والثقافية وغيرها[٦٢].

ثالثاً: الهدف السياسي: لقد أفاد الاستعمار كثيرا من التراث الاستشراقي، كما أن الاستعمار عمل على تعزيز موقف الاستشراق، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم في مؤسسات الاستشراق، وفي مضمونه مع مرحلة التوسع الأوربي. وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة كبيرة من المستشرقين لخدمة أغراضه، وتحقيق أهدافه، وتمكين سلطانه في البلدان المستعمرة، أمثال "كارل هينريش بيكر" المتوفى عام ١٩٣٣م، وهو مؤسس مجلة الإسلام الألمانية، وقد أجرى دراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في أفريقيا****، وكذلك "بارتولد" المتوفى عام ١٩٣٠م، وهو مؤسس مجلة الإسلام الروسية، والذي كلفته الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالحها في آسيا الوسطى، وكذلك عالم الإسلاميات الهولندي "سنوك هورنجرنيه" الذي تولى مناصب في السلطة الاستعمارية في اندونيسيا [٦٣]. وهكذا نشأت رابطة وثيقة بين الاستشراق والاستعمار. وقد كان التراث الاستشراقي بمثابة الدليل للاستعمار لفرض سيطرته على الشرق، وكانت المعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلاً ومجدياً، إذ أن المعرفة تمنح القوة، والمزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة، فهناك حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية. ويذهب بعض الباحثين إلى أن أوربا تكتشف الفكر الإسلامي في المرحلة العصرية الاستعمارية مرة أخرى، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع وفق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة لسلطانها[٦٤]. وعلى هذا الصعيد دأبت الجهات الراعية لعملية الاستشراق الموظَّف بالعمل على إضعاف روح الإخاء بين المسلمين والعمل على فرقتهم لإحكام السيطرة عليهم، وذلك بالعناية باللهجات العامية ودراسة العادات السائدة لتمزيق وحدة المجتمعات المسلمة. فقد كانوا يوجهون موظفيهم في هذه المستعمرات إلى تعلم لغات تلك البلاد ودراسة آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسونها ويحكمونها. وفي كثير من الأحيان كان المستشرقون ملحقين بأجهزة الاستخبارات لسبر غور حالة المسلمين وتقديم النصائح لما ينبغي أن يفعلوه لمقاومة حركات البعث الإسلامي.

رابعاً: الهدف العلمي الخالص: لم يكن كل المستشرقين ذوي نوايا مشحونةٍ بالعداء للشرق عموماً وللإسلام خصوصاً، وهذا ما يجب أن يشار إليه توخياً للحقيقة وإنصافاً لتاريخ الاستشراق، فالفضل في الحفاظ على الكثير من النصوص والمخطوطات المشرقية عموما، والعربية والإسلامية على وجه التحديد، يعود إلى المستشرقين، فكان لبعضهم الفضل في تعريف الباحثين بجانب مهم من الفكر العربي والإسلامي، وهذا يعود إلى اهتمام المستشرقين بنشر قسم لا يستهان به من ذلك التراث[٦٥]. فقد اتجه بعضهم إلى البحث والتمحيص لمعرفة الحقيقة خالصة، نذكر منهم المستشرق "رينو" الذي ترجم "جغرافية" "أبي الفداء" في أواسط القرن التاسع عشر، وكذلك المستشرق "دوزي" الذي بفضله انتشرت الأنوار العربية في إسبانيا، وكذلك "سيديو" الذي عمل جاهداً طوال حياته من أجل أن يحقق للفلكي العربي "أبي الوفاء" لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيأة "القاعدة الثانية لحركة القمر"، و"آسين بلاثيوس" الذي كشف عن المصادر العربية لملحمة "الكوميديا الإلهية"[٦٦]. ومن الإنصاف القول بأن الاستشراق الألماني لا يمكن أن يدخل في صف الاتجاه المعادي للإسلام، إذ لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام متصفة على الأغلب بروح عدائية، على الرغم من وجود بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين، أو بآراء خاطئة تماماً، كبعض آراء "نولدكه" عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء "فوللرز" عن القرآن وتهذيبه. فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين جعلوا ديدنهم عداء الإسلام، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل رافقت دراساتهم روح إعجاب وتقدير وحب وإنصاف، كما نجدها عند "رايسكه" الذي سمى نفسه "شهيد الأدب العربي"، و"جورج جاكوب" في كتابه "أثر الشرق في العصر الوسيط" و"زيغريد هونكه" في كتابها "شمس الله تسطع على الغرب"، وعند أعظم المستشرقين الألمان في العصر الحالي "هلموث ريتر" وعند "شبولر" وعند "باريت" في دراساته المتأخرة، بل إن بعضهم اسلم حبا بالعربية والإسلام مثل "ريشر" الذي سمى نفسه "عثمان"، وبعضهم اتخذ لنفسه اسماً عربيا مثل "أوغست ملز" الذي سمى نفسه "امرؤ القيس بن الطحان" والذي نشر "طبقات الأطباء" للمؤرخ "ابن أبي أصيبعة" [٦٧].

خاتمة البحث

كان هذا بحثاً حاول الدوران حول تأريخ الاستشراق، ثم حاول النفاذ إلى كنهه، والوقوف على أبرز المثابات المميزة له، وقد استعان البحث بالعديد من المصادر توخياً للإنصاف الذي يتوجب على دارس التاريخ التحلي به، وتوخياً لإخراج الحقيقة التي كثيراً ما تكون هاجعة ومتمترسة بين السطور وخلف ظواهر الأحداث.

فأما عن مفهوم الاستشراق وصلته بالعلم، فإن البحث يرى أنه بعيد عن تخوم العلم، ومن الصعوبة له أن يتاخم حدوده، وذلك لسبب بسيط متمثل بكون العلم ينشد على الدوام معرفة الحقيقة المجردة، وإن كانت لا تلائم العواطف والأهواء، بالإضافة إلى وجوب استخدام وسائل المعرفة الممكنة لرصد الظاهرة التي هي قيد الدرس، وذلك لملاحقة التطورات الجارية عليها، بغية الوصول إلى قانون علمي يفسر هذه الظاهرة أو تلك، وهذا القانون بدوره يتوجب فيه أن يكون قابلا للتعميم وللتكميم، ومن ثم فإنه لا يمكن عد الاستشراق علما من العلوم، له خصائصه الذاتية كأي علم آخر، لأنه من الصعب إثبات ذلك نظراً لطبيعة هذه الدراسة الشمولية التي تناولت كل شيء عن الشرق، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستشراق ينتمي إلى الحقل الأيديولوجي في كثير من زواياه، إذ أن له أيديولوجية خاصة يراد من وراءها ترويج تصورات معينة عن الإسلامٍ بصرف النظر عما إذا كانت تلك التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات[٦٨].

ومما يريد هذا البحث أن يذهب إليه هو التنويه إلى كثرة ما كتب ويكتب عن موضوعة الاستشراق، مقابل قلة ما كتب ويكتب عن موضوعة الاستغراب، الأمر الذي يدعو للوقوف عند هذه الإشكالية، وأسبابها، والسبيل إلى حل عقدها، ومن ثم تشكيل أيديولوجيا تعمل على توظيف الكتابات والأبحاث المتعلقة بالاستغراب لمصلحة الأمة العربية، وهذا الأمر لا يمكن إتمامه إلا بالعمل على بلورة مشروع نهضوي عربي مستقبلي يتشكل حول نواة قوية قادرة على تشكيل

عنصر عربي قادر على مواجهة التحديات الآنية، والقوى المتربصة به، وقادرة على التفاعل مع عالم اليوم، ولا سيما والأمة العربية تشهد محاولات عديدة للالتفاف حولها وتجزئتها وتمزيق فكرها بعد أن نجحت تلك المحاولات في تمزيق أرضها وسمائها ومياهها. فهذا البحث هو دعوة للاستفادة من تطور الغرب العلمي والتقني، والاستفادة من تجربة الغرب التي نراه الآن يقطف جنيَّ ثمارها، لا عن طريق استنساخ التجربة ونقلها من بيئتها إلى البيئة العربية ولكن عن طريق توظيف العلم في سبيل تعزيز المقدرة على المواجهة وخلق التوازنات المطلوبة، وتغيير صورة العربي المسلم التي عملت المؤسسات التي عنيت بالاستشراق على تصويره بالخمول والتواكل وإخراج صورته وفق العين الأوربية على أنه ليس أهلا إلا لأن يكون محكوماً، وفق منطق ثنائية الشمال والجنوب أو ثنائية الشرق والغرب، أو وفق منطق العوالم الثلاثة.

هوامش البحث

(١) قناة الجزيرة الفضائية، برنامج مراسلون، ٢٠٠٤/٥/١٧، ويمكن الحصول على نص اللقاء من خلال موقع الجزيرة على الشبكة الدولية للمعلومات، www.aljazeera.net.

(٢) عباس، زيد، ميتافيزيقا الاستشراق وتصور الآخر، معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، ١٢/ ٧/ ٢٠٠٧، www.alhadhariya.net .

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، ج ٨، دار صادر، ط١، بيروت، ب ت، ص ٦٤.

(٤) بوكاري، مصطفى الحاج مالك، الاستشراق الفرنسي وموقفه من تاريخ عهد النبوة، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الدعوة وأصول الدين، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢، ص ٢.

(٥) المحمادي، مرسال عبد الله مرسال، موقف المستشرقين من دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، المملكة العربية السعودية، ب ت، ص ٤٧.

(٦) سيزار، ياروسلاف، و فوزار، جوزيف، نقاط التلاقي والصراع بين أوربا العصور الوسطى والشرق القرن ١٠ – ١٥ م، ترجمة. جوزيف نسيم يوسف، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، مج ١٠، ع١، أبريل ١٩٧٩، ص ٢٣٣.

(٧) رضوان، عمر بن إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ج١، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢، ص ٢٣. وكذلك. بُني عامر، محمد أمين حسن محمد، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط١، إربد، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٤، ص١١.

(٨) بارت، رودي، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة. مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ب ت، ص ١١.

(٩) مطبقاني، مازن، الاستشراق، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩، ص ٥.

(١٠) سعيد، إدوارد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة. صبحي حديدي، الدار العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٩٦، ص ٣٥.

(١١) النملة، علي بن إبراهيم الحمد، المستشرقون ونشر التراث، مكتبة الملك فهد الوطنية، ط١، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣، ص ١٥.

(١٢) فوزي، فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمَّان، ١٩٩٨، ص ٣٠.

(١٣) أبو خليل، شوقي، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، دار الفكر، ط١، دمشق، ١٩٩٥، ص ٦.

(١٤) بن نبي، مالك، إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، ط١، بيروت، ١٩٦٩، ص ٦.

(١٥) محمد، ماجد عادل، الفهم الاستشراقي لتفسير القرآن الكريم، رسالة ماجستير، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية، جامعة الكوفة، كلية الفقه، ٢٠٠٧، ص ٩.

(١٦) إدريس، محمد جلاء، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٥.

(١٧) عبد اللطيف، كمال، صور المغرب وأوربا في أدب الرحلات المغربية، مجلة فكر ونقد، ع ٢، .www.fikrwanakd.aljabriabed.net

(١٨) النشار، مصطفى، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء للطباعة النشر ، ط١، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠.

(١٩) منصور، خيري، الاستشراق والوعي السالب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ب ت، ص ١٣٧.

* من أبرز المفكرين العرب الذين كان موضوع الاستشراق مثار خلاف بينهم، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر "إبراهيم عبد المجيد اللبان" و"أحمد محمد جمال" و"عبد الجليل شلبي" و"أحمد الشرباصي" و"علي جريشة" و"مصطفى السباعي" و"محمد البهي" و"نجيب العقيقي" و"إسحق موسى الحسيني" و"إبراهيم

مذكور"، كما كانت موضوعة الاستشراق مثار خلاف بين المفكرين الغربيين ومنهم "رودي بارت" و"يوسف جيرا" و"الأب لامنس" و"برنارد لويس" و"ماكس فانتاجو". ينظر. بُني عامر، محمد أمين حسن محمد، المستشرقون والقرآن الكريم، مصدر سابق، ص ٢٣ ، ٢٤، ٢٥، ٢٦. كذلك ينظر. سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مصدر سابق، ص ٥٨.

(٢٠) رضوان، عمر بن إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ج١، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٢١) النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط١، فيرجينيا، الولايات المتحدة، ١٩٩٧، ص ١٧.

(٢٢) سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٢.

(٢٣) المحجوبي، خالد إبراهيم، الاستشراق والإسلام، أكاديمية الفكر الجماهيري، ط١، بنغازي، ليبيا، ٢٠١٠، ص ١٦.

(٢٤) رودنسون، مكسيم، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية في تراث الإسلام، القسم الأول، ترجمة. محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص٢٧، ١٠١.

(٢٥) عبد الله، عبد القهار داود، الاستشراق والدراسات الإسلامية، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ط١، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠١، ص٧.

(٢٦) إدريس، محمد جلاء، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، مصدر سابق، ص ١٧.

(٢٧) الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، دار النفائس، ط١، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٢٠. كذلك ينظر. سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مصدر سابق، ص ٥٢.

(٢٨) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٧٨.

(٢٩) العقيقي، نجيب، المستشرقون. ج١، دار المعارف، القاهرة، ب ت، ص ١٤٠ .

(٣٠) النشمي، عجيل جاسم، المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، ط١، الكويت، ١٩٨٤، ص ١١.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٢، ١٣.

(٣٢) رضوان، عمر بن إبراهيم، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، ج١، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٣٣) النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ١٧.

(٣٤) بلحبيب، رشيد أحمد، الاستشراق الأمريكي طبيعته وخلفياته، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، وجدة، الجزائر، ٢٠٠٩/٤/١٩، www.cerhso.com.

(٣٥) الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٣٦) النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ١٧.

(٣٧) الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٣٨) بُني عامر، محمد أمين حسن محمد، المستشرقون والقرآن الكريم، مصدر سابق، ص٢٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٤٠) سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مصدر سابق، ص ٤٠، ٤١.

(٤١) فوزي، فاروق عمر، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، مصدر سابق، ص ٣٠.

(٤٢) المنصوري، المبروك، الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية إلى النسبية الثقافية.الاستشراق، القرآن، الهوية والقيم الدينية عند العرب والغرب واليابانيين، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع، ط١، تونس، ٢٠١٠، ص ٩.

(٤٣) الغزالي، مشتاق بشير، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، مصدر سابق، ص ١٧.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤٥) يفوت، سالم، الاستشراق الوعي بالذات من خلال الوعي بالآخر، مجلة مدارات فلسفية، الجمعية الفلسفية المغربية، ع ١٣، ٢٠٠٨، www.philosophiemaroc.org .

(٤٦) الجوراني، علي جبار، التراث والخطاب الإعلامي للعولمة، المؤتمر الفلسفي الثامن لبيت الحكمة، بيت الحكمة، ط١، بغداد، ٢٠٠٩، ص ٥٠٩.

(٤٧) تيزيني، طيب، من الحداثة إلى ما بعد الحداثة. الإطار النظري المفاهيمي. إشكالية ونقد، المؤتمر العلمي الخامس لكلية الآداب والفنون، ٥ – ٧/ ديسمبر / ١٩٩٩، منشورات جامعة فيلادلفيا، ط٢، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٠، ص ٣١، ٣٢.

(٤٨) بيسينييه، جان ميشيل، الأفكار الأساسية لفلسفة القرن العشرين، ترجمة.عادل خدجامي، مجلة مدارات، الجمعية الفلسفية المغربية، الدار البيضاء، ع٦، ٢٠٠٨، www.philosophiemaroc.org.

(٤٩) عبد اللطيف، الخمسي، الهوية الثقافية بين الخصوصية وخطاب العولمة الهيمني، مجلة فكر ونقد، الدار البيضاء، ع ١٤، كانون الأول ٢٠٠٠، www.fikrwanakd.aljabriabed.net.

(٥٠) سلاَّم، محمد شكري، أطروحة نهاية التاريخ بين الفلسفة والأيديولوجيا، مجلة فكر ونقد، الدار البيضاء، ع ٣٤، كانون الأول ٢٠٠٠، www.fikrwanakd.aljabriabed.net.
(٥١) تيزيني، طيب، من الحداثة إلى ما بعد الحداثة. الإطار النظري المفاهيمي. إشكالية ونقد، مصدر سابق، ص ٣١ ، ٣٢.
(٥٢) علي، صباح واجد، الاستشراق والبلقنة وخطاب أنساق الهيمنة، معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، ٢٠٠٩/٧/٤، www.alhadhriya.net .
(٥٣) كلارك، جي جي، التنوير الآتي من الشرق، ترجمة. شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، ٣٤٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،٢٠٠٧، ص ١٥.
(٥٤) المرهج، علي عبد الهادي، العلاقة بين الشرق والغرب حوار أم صراع، معهد الأبحاث والتنمية الحضارية، 16/02/2008، . www.alhadhriya.net ، وكذلك، الخطابي، عز الدين، مكسيم رودنسون والاستشراق، مجلة الثقافة الجديدة، ع٣٠، السنة السادسة، مستغانم، المغرب، ١٩٨٣، ص ١٠٠.
** نسبة إلى سارة زوج النبي إبراهيم.
(٥٥) المرهج، علي عبد الهادي، العلاقة بين الشرق والغرب حوار أم صراع، مصدر سابق.
(٥٦) عبد زيد، عامر، القراءات النقدية العربية في الخطاب الاستشراقي، مجلة دراسات فلسفية، بيت الحكمة، بغداد، ع ٣١، ٢٠٠٨، ص ٧٢.
*** "برنارد لويس" باحثٌ مُجدٌ دؤوب، ولكنه سيء النوايا، وهو يجيد بعضاً من اللغات الشرقية ومنها التركية، ويعرف جيداً المصادر العثمانية الأصلية. ويعلم أن هذه المصادر تقول أن جامعة إسطنبول أقيمت في عهد السلطان "محمد الفاتح" عقب فتحه للقسطنطينية، وكان مشروع الجامعة مشروعاً إسلامياً بحتاً، لكن "برنارد لويس" أراد أن يحرم "الفاتح" من هذا الشرف، فلجأ إلى مصدر عثماني حديث ومدرسي كتبه "عثمان أركين" في العهد الجمهوري التركي الثاني بهدفٍ قوميٍّ بحت متمثل بطمس مآثر العثمانيين قبل عهد الجمهورية وعنوانه "تاريخ المعارف التركية"، وترك مقابل ذلك المصادر العثمانية الأصلية القديمة مثل "وقفية محمد الفاتح لإنشاء جامعة إستانبول". أما الزوجين "شو" فقد أسهما في التشكيك في إسلامية الدولة العثمانية من جهة والتشكيك في قدرة التشريع الإسلامي على الاستمرار في التعامل مع مستجدات التاريخ وتطورات العصر، فقد ذهبا إلى أن السلطان العثماني قد وضع قوانين علمانية في المجالات التي لم يستطع التشريع الإسلامي أن يشملها بدقة، وبذلك ظهر نظام قانوني ثنائي في الدولة العثمانية. حرب، محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٧٤، ٧٦.
(٥٧) يفوت، سالم، حفريات الاستشراق في نقد العقل الإستشراقي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٨٩، ص ٧، ٨
(٥٨) ينظر.النملة، علي بن إبراهيم، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين. استقراء للمواقف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣، ص ٨.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ١٢.
(٦٠) ينظر. مطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩، ص ١٦.
(٦١) النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ٢١.
(٦٢) مطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق، مركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٩، ص ١٧.
**** يذكر المستشرق الألماني "أولريش هارمان" إن الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩ أقل براءة وصفاء نية، وقد وصف "كارل هينريش بيكر" بأنه: (كان من كبار مستشرقينا، منغمساً في النشاطات السياسية، حتى أصبح في عام ١٩١٤ شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في أفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه بريطانيا). النملة، علي بن إبراهيم، مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين. استقراء للمواقف، مصدر سابق، ص ١٢.
(٦٣) ينظر. النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، مصدر سابق، ص٢٢، الهامش. وكذلك. قناة روسيا اليوم الفضائية، برنامج الاستشراق في روسيا، ٢٠١١/٢/١، .www.arabic.rt.com.
(٦٤) النعيم، عبد الله محمد الأمين، الاستشراق في السيرة النبوية، مصدر سابق، ص ٢٣.
(٦٥) ينظر تقديم ألبير نصري نادر لمؤلف الفارابي المسمى آراء أهل المدينة الفاضلة، دار المشرق، ط ٢ ، بيروت، ١٩٦٨، ص ٧.
(٦٦) بن نبي، مالك، إنتاج المستشرقين وأثره على الفكر الإسلامي الحديث، مصدر سابق، ص ٨.
(٦٧) ينظر. المنجد، صلاح الدين، المستشرقون الألمان. تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، ج١، دار الكتاب الجديد، ط١، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧..
(٦٨) إدريس، محمد جلاء، الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، مصدر سابق، ص ١٣.